لم نكتب عن المسألة الوطنية .

اننا نتحدث عن السمة العامة للجو الثقافي في فلسطين ، حيث لعب المثقفون دورا كان اكبر حجما من الدور الذي تلعبه هذه الفئة ، خصوصا حين لا تكون حزبية ، في امكنة اخرى تعيش الشروط الكلاسيكية لمعركة التحرر الوطني . كانت خصوصية الوضع بالنسبة للمثقف العربي فريدة : ففي المدينة كان أبناء الاغنياء يرون — بعد عودتهم من الجامعات او بعد انهائهم علومهم — كيف تقف الطبقة التي ينتمون اليها عاجزة كليا عن قيادة المعركة التي انتدبت نفسها لها ، مدركين في كل الاحوال تخلفها وكساحها الثقافي امام رياح العصر ، ولكنهم في الوقت ذاته كانوا يعانون من عجزهم عن ايجاد مكان لانفسهم في حركة المجتمع المتقدم نحو تثبيت صفته الصناعية ، اذ أن القوة التي كانت تتحكم بهذا التحول كانت قوة ، في جوهرها وفي مظهرها، اجنبية وغريبة ، ولذلك فان البورجوازية الوحيدة الموجودة بقوة لم تكن تتحداهم قوميا فحسب ، بل أيضا كانت تعتنق ثقافة لا تمت بصلة الى ثقافاتهم ولا الى مطامحهم الثقافية .

وفي الريف كان الفلاح الفلسطيني الذي رزح قرونا طويلة تحت اثقال القهر الطبقي والقومي ، وجرى تحويله عبر ذلك الى القدرية المفرطة بأسم الولاء الديني ، قد أنشأ لنفسه عالما « ثقافيا » مسورا بالتقاليد التي فرضتها الطبقة السائدة ، والتي عبرت عن نفسها بالامثال الشعبية ، هذه الامثلة التي كان لها سطوة القانون ، وهي سطوة معروفة في كل مكان وخصوصا في الارياف الخاضعة لعلاقات الانتاج الاقطاعية « فهي ليست شكلا من اشكال الفولكلور ... بل هو عمل كلامي يؤدي الى أقوى أنواع التأثير على مجرى الامور وعلى السلوك الانساني »(٥٢).

ان الفقر ، والانسحاق ، وتعاقب قرون مديدة من القهر القومي والطبقي ، قد ادت مجتمعة الى انشاء « مؤسسة كاملة » للاستسلام والقدرية والخنوع عكست نفسها بالامثلة الشعبية السائدة(*). وكان على المثقفين الفلسطينيين ، وخصوصا على الشعراء الشعبيين في الريف ، مهمات عظيمة لزحزحة تلك الثقافة الخاملة ، دون أن يكونوا هم انفسهم قد تخلصوا جذريا من تأثيراتها . والصحيح ان قطاعا من المثقفين الفلسطينيين قد شرعوا يفعلون ذلك منذ وقت مبكر في تاريخ النضال الفلسطيني ، وقد لعبوا دورا بارزا في بلورة وعي متقدم : ان العلاقة التي نشأت بين الادب الشعبي الفلسطيني ، وكذلك الادب الفصيح في المدن ، وبين حركة النضال الفلسطينية لم تكن علاقة وصفية او تسجيلية ، ولكنها كانت علاقة جدلية من طراز عميق .

ان الشاعر اللبناني الاصل ، وديع البستاني ، الذي كان قد تخرج من الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٠٧ وهاجر الى فلسطين واستقر فيها ، لعب دورا رائدا في عملية التوعية هذه : فقد حذر من وعد بلفور في نفس الشهر الذي صدر فيه الوعد عام ١٩١٧ بوضوح يبدو لنا الان وكأنه كان نظرا في مرآة . ومن المفيد تتبع حقبة من الزمن يمثلها البستاني ستزدهر في الثلاثينات،حين نضحي على أبواب الثورة المسلحة ، طليعة قوية من الشعراء والقوالين الذين الهبوا النضال المسلح وجعلوه ، ايضا ، جزءا من التراث الثقافي للجماهير التي كانت ترى في « كلب الامير أميرا » . ففي ٢٩ كانون الاول ١٩٢٠ وجهت حكومة الانتداب البريطاني الى رئيس تحرير مجلة الكرمل الثقافية التي كانت تصدر انذاك في حيفا رسالة رجت فيها نشر قصيدة كان قد اهداها شاعر العراق الشهير معروف الرصافي ، الذي كان يزور فلسطين آنذاك ، الى المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل ، وفيها يمجد خطيبا يهوديا اسمه «يهودا» ويكيل مديحًا لا حد له للمندوب السامي . ولكن

(*) نماذج من هذه الامثال : اللي بياكل من خبز السلطان بضرب بسيفو ، معك قرش بتسوى قرش ، البرطيل حل دكة القاضي ، الكذب ملح الرجال ، الف قلبه ولا غلبه ، بعد حشيشي ما ينبت حشيش ، بيضة اليوم ولا جاجة بكرة، حط راسك بين الروس وقول يا قطاع الروس ، قد بساطك مد رجليك ، كلب الامير امير ، العز للرز والبرغل شنق حالو ، تاجرنا بالكفان بطلت الناس تموت ، اشد الوجع الحاضر ، اللي ما بيجي معك تعال معو ، بيركض ورا الرغيف والرغيف بيركض قدامو ، الدنيا مع الواقف ، الاعمار والارزاق بيد الله ، ابن المازه عكازه، من زود الطفر شفنا البزقة شلن ، العين ما بتعلا عن الحاجب ، انا اول من طاع واخر من عصي .